/ سورة القَصص [٢٦٩و]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥]،[1] وهي ثمان وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

﴿طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد مرّ ما يتعلّق به مِن الكلام بالإجمال والتفصيل في أشباهه.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، ويجوز أن يكون "التلاوة" مجازًا مِن التنزيل. ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ مفعول ﴿نَتْلُوا۟﴾، أي: بعضَ نبئهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن فاعل ﴿نَتْلُوا۟﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمصدره، أي: نتلو عليكَ بعضَ نبئِهما ملتبسين، أو ملتبسًا بالحقّ، أو تلاوةً ملتبسةً بالحقّ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُوا۟﴾، وتخصيصُهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكلّ لأنّهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التفسير للمُجمل المَوعودِ. وتصديرُه بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده، أي: أنّه تجبّر وطغا في أرض مصر، وجاوَز الحدودَ المعهودة في الظلم والعدوان.

---

[1] ط س - وقيل: إلّا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص، ٢٨/٥٢-٥٥].

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا يُشَيِّعونه في كلّ ما يريده مِن الشرّ والفساد، أو يشيّع بعضُهم بعضًا في طاعته، أو أصنافًا في استخدامه يستعمِل كلّ صنفٍ في عمل، ويتسخّرُه فيه؛ مِن بناءٍ وحَرْثٍ وحَفرٍ وغير ذلك مِن الأعمال الشاقّة، ومَن لم يستعمله ضرَب عليه الجزية، أو فِرَقًا مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاء؛ لئلّا تتّفق كلمتُهم.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿جَعَلَ﴾، أو صفة لـ﴿شِيَعًا﴾، أو استئناف، وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدل منها.

وكان ذلك لِما أنّ كاهنًا قال له: يُولَد في بني إسرائيل مولود يذهبُ مُلكُك على يده، وما ذاك إلّا لِغاية حُمقه، إذ لو صدق فما فائدةُ القتل، وإن كذب فما وجهه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الراسخين في الإفساد، ولذلك اجتَرأَ على مثل تلك العظيمة مِن قتل المَعصومين مِن أولاد الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

[٢٦٩ظ] / ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي: نتفضّلَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم مِن بأسه. وصيغة المضارع في ﴿نُرِيدُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية، وهو معطوف على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾... إلخ؛[1] لتناسُبِهما في الوقوع في حيّزِ التفسير للنبأ، أو حال مِن ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بتقدير المبتدأ، أي: يَستضعفُهم فرعونُ ونحن نريد أن نمُنّ عليهم.

وليس مِن ضرورة مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنةُ المراد له، لِما أنّ تعلّق الإرادة للمَنّ تعلّق استقبالي، على أنّ منّة الله تعالى عليهم بالخلاص لمّا كانت في شرَف الوقوع جاز إجراؤها مُجرى الواقع المقارِن له. ووضعُ الموصول موضع الضمير لإبانة قدر النعمة في المنّة بذِكر حالتهم السابقة المباينة لها.

---

[1] في الآية السابقة.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتَدَى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعًا مُسخَّرين لآخرين، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لجميع ما كان منتظِمًا في سِلك مُلك فِرعونَ وقومه وِراثةً معهودةً فيما بينهم، كما يُنبئ عنه تعريف ﴿الْوَارِثِينَ﴾. وتأخير ذكر وِراثتهم له عن ذكر "جعلهم أئمّةً" مع تقدّمها عليه زمانًا لانحطاط رتبتها عن الإمامة، ولئلّا ينفصل عنه ما بعده مع كونه مِن رَوادفه، أعني: قولَه تعالى:[1] ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾... إلخ، أي: نسلِّطهم على مصر والشام يتصرّفون فيهما كيفما يشاءون. وأصل التمكين أن يجعل للشيء مكانًا يتمكّن فيه.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: مِن أولئك المستضعَفين ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه مِن ذهابِ مُلكهم وهُلْكِهم على يد مولودٍ منهم. وقُرئ: "يَرَى" بالياء ورفعِ ما بعده على الفاعِليّة.[2]

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكنكِ إخفاؤه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحسّ به الجيرانُ عند بكائه ويَنُمُّوا عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في البحر، وهو النيل، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيعةً بالغرَق ولا شدّة، ﴿وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب بحيث تأمَنين عليه، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحَزَن. وإيثار الجملة الاسميّة وتصديرُها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي: إنّا فاعلون لردّه وجعلِه مِن المرسلين لا محالةَ. [٢٧٠و]

رُوي أنّ بعض القوابل الموكَّلات مِن قِبَل فرعونَ بحَبالى بني إسرائيل كانت مُصافيةً لأمّ موسى عليه السلام، فقالت لها: «لِيَنفعني حبُّكِ اليوم»، فعالَجتْها، فلمّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عَينَيه، وارتعش كلّ مَفصِل منها، ودخل حُبّه في قلبها، ثمّ قالت: «ما جئتكِ إلّا لأقتلَ مولودكِ، وأُخبِرَ فرعونَ،

---

١ م - تعالى.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

ولكنّي وجدت لابنكِ في قلبي محبّةً ما وجدت مثلها لأحدٍ، فاحفَظِيه، فلمّا خرجَتْ جاء عيون فرعون، فلَفَّتْه في خِرقة فألقَتْه في تنّورٍ مَسجور، لم تعلم ما تصنع لِما طاشَ مِن عقلها، فطلبوا فلَمْ يُلْفُوا[1] شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمِعَتْ بكاءه مِن التنّور، فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا، فلمّا أَلَحَّ فرعون في طلب الوِلدان أَوحى الله تعالى إليها ما أوحى.[2] وقد رُوي أنّها أرضَعَتْه ثلاثة أشهر في تابوتٍ مِن بَرْدِيّ[3] مَطليّ بالقار مِن داخله.[4]

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحة مُفصِحة عن عطفه على جملةٍ مترتّبةٍ على ما قَبلها مِن الأمر بالإلقاء، قد حُذفَت تَعويلًا على دلالة الحال، وإيذانًا بكمال سرعة الامتثال، أي: فألْقَتْه في اليَمّ بعد ما جعلَته في التابوت حسبما أُمِرَت به، فالتقطه آل فرعونَ، أي: أخذوه أَخْذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضياع.

[٢٧٠ظ] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وغيره: «كانَ لفرعونَ يومئذ بنت، لم يكن له ولد غيرها، وكانت مِن أكرم الناس إليه، وكان بها بَرَص شديد، عجزت الأطبّاء عن علاجه، فقالوا: "لا تَبرأ إلّا مِن قِبل البحر، يؤخذ منه شِبه الإنس يومَ كذا وساعةَ كذا مِن شهر كذا حين تشرق الشمس، فيؤخذ مِن ريقه، فَيُلطَّخُ به بَرصُها فَتَبرَأ"، فلمّا كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل، ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد الذي كان فرعونَ مِصر في زمن يوسف الصدّيق عليه السلام -وقيل: كانت مِن بني إسرائيل مِن سبط موسى. وقيل: كانت عمّتَه، حكاه السهيلي-[5] وأقبلت بنت فرعونَ في جواريها حتّى جلستْ على شاطئ النيل، فإذا بتابوت في النيل تضربه الأمواج، فتعلّق بشجرة، فقال فرعون: "ائتوني به"، فابتدروا بالسُّفُن فأحضروه بين يديه،

---

١ وفي هامش م: أي: لم يصادِفوا. «منه».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٣٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٣.

٣ وفي هامش م: البَردي: نبات معروف. «منه».

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٣.

٥ التعريف والإعلام للسهيلي، ص ٩٦.

فعالَجُوا فتحَه فلم يقدروا عليه، وقصدوا كسرَه فأعياهم، فنظرَت آسيةُ فرَأتْ نورًا في جوف التابوت لم يَرَه غيرها، فعالَجَته ففتَحَته، فإذا هو بصبيّ صغير في مَهدِه، وإذا نور بين عَينَيه وهو يمُصّ إبهامَه لبنًا، فألقى الله تعالى محبّته في قلوب القوم، وعمَدَت ابنةُ فرعون إلى رِيقه فلَطّخَت به برَصَها فبرَأت مِن ساعته. وقيل: لمّا نظرتْ إلى وجهه بَرَأت، فقالت الغُواة مِن قوم فرعون: "إنّا نظنّ أنّ هذا هو الذي نحذَر منه، رُمِي في البحر فَرَقًا منك، فاقتله"، فهَمّ فرعون بقتله، فاستوهبَته آسية، فتركه»[1] كما سيأتي.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ / لام العاقبة، أُبرِزَ [٢٧١و] مَدخولها في مَعرض العلّة لالتقاطهم تشبيهًا له في الترتيب عليه بالغرَض الحامل عليه. وقُرئ: "حُزْنًا"،[2] وهما لغتان، كـ"السُّقْم" و"السَّقَم". جُعِلَ عليه السلام نفسَ الحَزَن إيذانًا بقوّة سببيّته لحَزَنهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي: في كلّ ما يأتون وما يذَرون، فلا غَرْوَ في أن قَتلوا لأجله أُلوفًا، ثمّ أخذوه يُربّونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون. رُوي أنّه ذُبِحَ في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليدٍ.[3] أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن رَبّى عدوّهم على أيديهم، فالجملة اعتراضيّة لتأكيد خطئهم، أو لبيان الموجِب لِما ابتُلُوا به. وقُرئ: "خَاطِينَ"[4] على أنّه تخفيف "خَاطِئِينَ"، أو على أنّه بمعنى: متعدّين الصوابَ إلى الخطأ.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعونَ حين أخرجتْه مِن التابوت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ أي: هو قرّة عين لنا، لِما أنّهما لمّا رَأياه أحبّاه، أو لِما ذُكِر مِن بَرء بنته

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢١١/١٥.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٣.

٤ قرأ بها أبو جعفر، وهو أحد وجهين لحمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

مِن البرَص بريقِه. وفي الحديث: «أنّه قال: "لكِ لا لي"، ولو قال: "لي كما هو لكِ" لهداه الله تعالى كما هداها».[1]

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبَتْه بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنّ فيه مخائل اليُمْن، ودلائلَ النجابة، وذلك لِما رأت فيه مِن العلامات المذكورة. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنّاه فإنّه خليق بذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال مِن ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾،[2] والتقدير: فالتقطه آل فرعونَ ليكون لهم عَدُوًّا وحَزَنًا، وقالت امرأته له: كَيت وكَيت، وهم لا يشعرون بأنّهم على خطأ عظيم فيما صنعوا مِن الالتقاط ورجاءِ النفع منه والتبنّي له.

[٢٧١ظ] / وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ،[3] اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم، وقيل: حال مِن أحد ضميرَي ﴿نَتَّخِذَهُۥ﴾ على أنّ الضمير للناس، أي: وهم لا يعلمون أنّه لغيرنا وقد تَبنَّيناه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صُفرًا مِن العقل، لِما دَهِمها مِن الخوف والحَيرة حين سَمِعَت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٣]، أي: خلاءٌ لا عقولَ فيها، ويعضُده أنّه قُرئ: "فِرْغًا"،[4] مِن قولهم: "دماؤهم بينهم فِرْغٌ"، أي: هَدْر. وقيل: فارغًا مِن الهمّ والحُزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، أو لسماعها أنّ فرعون عطَف عليه وتبنّاه. وقُرئ: "مُؤْسَى" بالهمز[5] إجراءً للضمّة في جارة الواو مُجرى ضمّتها فهُمِزت كما في "وُجوه".[6]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٣٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٤. وهو جزء من حديث طويل أخرجه النسائي في السنن الكبرى، ١٠/١٧٢ (١١٢٦٣)، بلفظ: «لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكنّ الله حرَمه ذلك».

٢ في الآية السابقة.

٣ القصص، ٢٨/٤.

٤ قراءة شاذّة، ذكر ابن جنّي أنّ قُطرب حكاها عن بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ٢/١٤٨.

٥ س - بالهمز. | قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطرب وبعض القرّاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٦ عبارة ابن جنّي: «إنّ ضمّة الميم في "الموقدان" »

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: إنّها كادت لَتَظهر بموسى، أي: بأمره وقصّته مِن فرط الحَيرة والدهشة، أو الفرحِ لتبنّيه، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدّقين بوعد الله تعالى، أو مِن الواثقين بحفظه، لا بتبنّي فرعون وتعطّفه، وهو علّة الربط. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم، والتعبيرُ عنها بأخوّته عليه السلام دون أن يقال: "لِبنتها" للتصريح بمَدار المحبّة الموجبة للامتثال بالأمر: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتّبِعي أثرَه وتتبّعي خبره، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَته ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعد. وقُرئ بسكون النون،[1] و"عَن جَانِبٍ"،[2] والكلّ بمعنًى.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّها تقصّه وتتعرّف حاله، أو أنّها أختُه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ أي: منعناه أن يرتضع مِن المرضعات. و﴿ٱلْمَرَاضِعَ﴾ جمع "مُرْضِع"، وهي المرأة التي تُرضع، أو "مَرْضَع"، وهو الرضاع أو موضِعه، أعني: الثديَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل قصِّها أثرَه.

﴿فَقَالَتْ﴾ عند رؤيتها لِعدم قبوله الثديَ، واعتناءِ فرعونَ / بأمره، وطلبِهم [٢٧٣و]
مَن يَقبل ثديَها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته.

« و"موسى" لمّا جاورت الواوَ الساكنة صارت كأنّها فيها، والواو إذا انضمّت ضمًّا لازمًا هُمزت؛ نحو: "أُجُوه" و"أُقِّتَت"». الخصائص لابن جنّي، ٣/١٥٠.

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النعمان بن سالم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٥.

رُوي أنّ هامان لمّا سمعه منها قال: «إنّها لَتعرفُه وأهلَه، فخذوها حتّى تخبِر بحاله»، فقالت: «إنّما أردتُ: وهُم لِلملِك ناصِحون»، فأمرها فرعون بأن تأتي بمَن يكفُله، فأتت بأمّه وموسى على يد فرعونَ يبكي، وهو يعلّله، فدفعه إليها فلمّا وجد ريحَها استأنس والتقَم ثديَها، فقال: «مَن أنتِ منه؟ فقد أبى كلّ ثدي إلّا ثديكِ»، فقالت: «إنّي امرأة طيّبة الريح طيّبة اللبن، لا أُوتَى بصبيّ إلّا قَبِلني»، فقرّره في يدها، وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها مِن يومها.[1]

وذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وعده مِن ردّه وجعلِه مِن المرسلين ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدة بعضِه، وقياس بعضه عليه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيرتابون فيه، أو أنّ الغرض الأصلي مِن الردّ علمُها بذلك، وما سواه تَبَع. وفيه تعريض بما فرَط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا[2] بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغ الذي لا يزيد عليه نَشؤُه، وذلك مِن ثلاثين إلى أربعين سنةً، فإنّ العقل يكمل حينئذ. ورُوي أنّه لم يُبعث نبيّ إلّا على رأس الأربعين.[3] ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: اعتدل قدّه أو عقله. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: نبوّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو علمَ الحكماء والعلماء وسَمْتَهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل فعلًا يُستَجهل فيه، وهو أوفَق لنظم القصّة؛ لأنّه تعالى استنبأه بعد الهجرة في المراجعة. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ / ذلك الذي فعلنا بموسى وأمّه ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم. [٢٧٣ظ]

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.

٢ س: فلمّا.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٩٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٣.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي: مِصرَ مِن قصر فرعون. وقيل: مَنْفَ،[١] أو حايينَ،[٢] أو عينَ الشمس،[٣] مِن نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يُعتاد دخولها، أو لا يتوقّعونه فيه. قيل: كان وقتَ القيلولة. وقيل: بين العشاءَين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه على دينه، وهم بنو إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: مِن مخالفيه دينًا، وهم القِبط. والإشارة على الحكاية.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: سأله أن يغيثه بالإعانة، كما يُنبئ عنه تعديته بـ﴿عَلَى﴾. وقُرئ: "اسْتَعَانَه".[٤] ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: ضرَب القِبطيَّ بجمعِ كفِّه. وقُرئ: "فَلَكَزَهُ"،[٥] أي: فضرَبَ به صَدرَه، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتَلَه، وأصلُه أنهى حياته، مِن قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنّه لم يكن مأمورًا بقتل الكفّار، أو لأنّه كان مأمونًا فيما بينهم، فلم يكن له اغتيالهم. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خَطأً، وإنّما عدّه مِن عمل الشيطان وسمّاه ظلمًا واستغفر عنه جَريًا على سَنن المقرّبين في استعظام ما فرَط منهم، ولو كان مِن محقَّرات الصغائر. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ توسيطه بين كلامَيه عليه السلام لإبانة ما بينهما مِن المخالفة مِن حيث إنّه مناجاة ودعاء، بخلاف الأوّل. ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أي: بقتله

---

١ مَنْف: مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: «أصلها بلغة القبط "مافه"، فعرّبت فقيل: مَنْف». وهي أوّل مدينة عمّرت بعد غرق فرعون. بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستّة فراسخ. معجم البلدان للحموي، ٢١٤/٥.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ١٩٦/٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٢/٨: "حابين" بـ"الباء". وفي مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٧؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٥٣/١٧: "خانين" بـ"الخاء" المعجمة والنون.

٣ عَين الشمس: مدينة فرعون بمصر ممّا يلي جبل المقطّم، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، بينه وبين بَلبيس مِن ناحية الشام قرب المطريّة، وليست على شاطئ النيل. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٧٨/٤؛ والروض المِعطار للحميري، ص ٤٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش وسيبويه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣٩٨/٣.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنبي، ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ذلك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المبالِغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتِهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ إمّا قسَم محذوف الجواب، أي: أُقسِم بإنعامك عليّ بالمغفرة / لأتوبنّ، ﴿فَلَنۡ أَكُونَ﴾ بعد هذا أبدًا ﴿ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وإمّا [٢٧٤و] استعطاف، أي: بحقّ إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معينًا لِمَن يؤدّي معاونته إلى الجُرم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لم يستَثْنِ فابتُلِي به مرّة أخرى، وهذا يؤيّد الأوّل. وقيل: معناه: بما أنعمتَ عليّ مِن القوّة أُعِين أولياءك، فلن استعمِلَها في مظاهرة أعدائك.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ يترصّد الاستقادة أو الأجنادَ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيثه برفع الصوت، مِن "الصُّراخ"، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: بيّنُ الغواية، تسبّبتَ لقتل رجلٍ وتقاتل آخَر.

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ أي: لموسى وللإسرائيلي، إذ لم يكن على دينهما، ولِأنّ القِبط كانوا أعداءً لبني إسرائيل على الإطلاق. وقُرئ: "يَبْطُشَ" بضمّ "الطاء".[1]

﴿قَالَ﴾ أي: الإسرائيلي ظانًّا أنّه عليه السلام يَبطِش به حسبما يوهمه تسميته إيّاه غويًّا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ قالوا: لمّا سمع القبطي قولَ الإسرائيلي علم أنّ موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني،

---

[1] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، وأمر فرعونُ بقتل موسى عليه السلام. وقيل: قاله القبطي.

﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الذي يفعل كلّ ما يريده مِن الضرب والقتل، ولا ينظر في العواقب. وقيل: المتعظّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: كائن مِن آخرها، أو جاءَ مِن آخرها ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع، صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه على أنّ الجارّ والمجرور صفة له، لا متعلِّقٌ بـ﴿جَآءَ﴾، فإنّ تخصّصه يُلحِقه بالمعارف. / قيل: هو مؤمن آلِ [٢٧٤ظ] فرعونَ، واسمه حزقيل، وقيل: شمعون، وقيل: شمعان.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، فإنّ كلًّا مِن المتشاوِرَين يأمر الآخرين ويَأتَمِر، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: مِن المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ "اللام" للبيان، لِما أنّ معمول الصلة لا يتقدّمها.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: مِن المدينة ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلّصني منهم، واحفظني مِن لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: نحوَ مَدين، وهو قرية شعيب عليه السلام، سمّيت باسم مَدين بن إبراهيم، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيّام، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ[1] أَن يَهْدِيَنِى[2] سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكّلًا على الله تعالى،

---

١ ط س - ربّي.

٢ ط س + ربّي. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

وثِقةً بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرُق، فعَنَّ له ثلاثُ طرائق، فأخذ في الوسطى، وجاء الطلّاب فشرعوا في الأُخريَين. وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلّا بورَق الشجر، فما وصل حتّى سقط خُفّ[1] قدميه. وقيل: جاء مَلَك على فرس وبيده عَنَزة،[2] فانطلق به إلى مَديَن.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: وصل إليه، وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي: فوقَ شفيرها ﴿أُمَّةً﴾ جماعةً كثيفة ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: مواشيَهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تَمنعان ما معهما مِن الأغنام عن التقدّم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم مع عدم الفائدة في التقدّم.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه مِن التأخّر والذَّود: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنُكما فيما أنتما عليه مِن التأخّر والذَّود؟ ولِمَ لا تباشرانِ السقي كدَأب هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا / لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: عادتنا أن لا نسقي [٢٧٥و] حتّى يَصرف الرُّعاةُ مواشيَهم بعد رِيِّها عن الماء عجزًا عن مُساجَلَتهم، وحذَرًا عن مخالطة الرجال، لا أنّا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغاية.

وحُذف مفعول السقي والذود والإصدار لِما أنّ الغرض هو بيان تلك الأفعالِ أنفسِها، إذ هي التي دَعَتْ موسى عليه السلام إلى ما صنع في حقّهما مِن المعروف، فإنّه عليه السلام إنّما رحمهما لكونهما على الذِّياد للعجز والعِفّة، وكونِهم على السقي غيرَ مبالين بهما، وما رحمهما لكون مَذودِهما غنمًا ومَسقيِّهم إبِلًا مثلًا.

وقُرئ: "لَا نُسْقِي"[3] مِن "الإسقاء"، و"يَصْدُرَ"[4] مِن "الصُّدور"، و"الرُّعَاءُ"

---

١ س: حف.

٢ العَنَزَة -بالتحريك-: أطول مِن العصا، وأقصرُ مِن الرمح. **الصحاح** للجوهري، «عنز».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة السمان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٦.

٤ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤١.

بضمّ "الراء"،[1] وهو اسم جمع كـ"الرُّخال"، وأمّا ﴿ٱلرِّعَآءُ﴾ فجمعٌ قياسي كـ"صِيام" و"قِيام".

وقوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ إبْلاءٌ منهما للعذر إليه عليه السلام في تَوَلّيهما للسقي بأنفسهما، كأنّهما قالتا: إنّا امرأتان ضعيفتان مستورتان، لا نقدر على مُساجَلة الرجال ومزاحمتهم، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ كبير السنّ، قد أضعفه الكِبَر، فلا بدّ لنا مِن تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارَهم مِن الماء.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمةً عليهما، والكلام في حذف مفعوله كما مرّ آنفًا. رُوي أنّ الرُّعاة كانوا يَضَعون على رأس البئر حجَرًا لا يُقِلّه إلّا سبعة رجال، وقيل: عشرة، وقيل: أربعون، وقيل: مائة، فَأَقَلّه وحدَه مع ما كان به مِن الوَصَب[2] والجراحة والجوع،[3] ولعلّه عليه السلام زاحَمَهم في السقي لهما، فوضعوا الحجَر على البئر لتعجيزه عليه السلام عن ذلك، فإنّ الظاهر أنّه عليه السلام غِبَّما شاهد حالهما سارع إلى السقي لهما، وقد رُوي أنّه دفعهم عن الماء إلى أن سقى لهما.[4] وقيل: كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة.[5]

ورُوي أنّه عليه السلام سألهم دلوًا مِن ماء، فأعطَوْه دَلوَهم، وقالوا: استَقِ بها، وكان لا ينزعها إلّا أربعون، فاستقى بها وصبّها في الحوض ودعا بالبركة، ورَوّى غنمهما وأصدَرهما.[6]

/ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان هناك، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ أي: أيّ شيء أنزلته إليّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ جَلَّ أو قَلَّ. وحمَله الأكثرون على الطعام بمعونة المَقام. [٢٧٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٦.

٢ الوَصَبُ: المرض. الصحاح للجوهري، «وصب».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٧/٨.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٣.

﴿فَقِيرٌ﴾ أي: محتاج. ولتضمّنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدِّعامة؛ لتقوية العمل. وقيل: المعنى: لِما أنزلتَ إليّ مِن خير عظيمٍ هو خير الدارين صِرتُ فقيرًا في الدنيا؛ لأنّه كان في سَعة مِن العيش عند فرعون، قاله عليه السلام إظهارًا للتبجّح[1] والشكر على ذلك.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل: هي كُبراهما، واسمها صَفوراء، أو صَفراء، وقيل: صُغراهما، واسمها صُفيراء، أي: جاءته عَقيب ما رجعتا إلى أبيهما. رُوي أنّهما لمّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامُهما حُفَّلٌ بِطان، قال لهما: «ما أعجلَكما؟» قالتا: «وجدنا رجلًا صالحًا رَحِمَنا فسَقى لنا»، فقال لإحداهما: «اذهبي فادْعيهِ لي».[2]

وقوله تعالى: ﴿تَمْشِي﴾ حال مِن فاعل ﴿جَآءَتْ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن ضمير ﴿تَمْشِي﴾، أي: جاءته تمشي كائنةً على استحياء، فمعناه: أنّها كانت على استحياء حالتَي المشي والمجيء معًا، لا عند المجيء فقط. وتنكير ﴿ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ للتفخيم. قيل: جاءته مُتَخَفِّرةً، أي: شديدةَ الحياء. وقيل: قد استَتَرَتْ بِكُمّ دِرعها.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيئها إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت له عليه السلام؟ فقيل: قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاءَ سقيكَ لنا. أسندَت الدعوة إلى أبيها، وعلّلتها بالجزاء لئلّا يوهِم كلامها ريبةً. وفيه مِن الدلالة على كمال العقل والحياء والعفّة ما لا يخفى.

رُوي أنّه عليه السلام أجابها، فانطلقا وهي أمامَه، فألزقت الريحُ ثوبها بجسدها فوَصفَتْه، فقال لها: «امشي خَلفِي، وانْعَتِي لي الطريق»، ففعلَتْ حتّى أتيا دار شعيب عليهما السلام.[3]

---

١ التبجّح: الفرح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بجح».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٤/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: ما جرى عليه، مِن "الخبر المقصوص"، فإنّه مصدر سمّي به المفعول كـ"العَلَلِ".[١]

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ / الذي يلوح مِن ظاهر النظم الكريم [٢٧٦و] أنّ موسى عليه السلام إنّما أجاب المستدعيةَ مِن غير تَلَعْثُم ليتبرّك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهرَ برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجرًا حسبما صرّحت به. ألا يُرى إلى ما رُوي أنّ شعيبًا لمّا قَدّم إليه طعامًا قال: «إنّا أهلُ بيت لا نبيع ديننا بطِلاع الأرض ذهَبًا، ولا نأخذ على المعروف ثمنًا»، ولم يتناول حتّى قال شعيب عليهما السلام: «هذه عادَتُنا مع كلّ مَن ينزل بنا»،[٢] فتناول بعد ذلك على سبيل التقبّل لمعروف مبتَدأ، كيف لا، وقد قَصّ عليه قَصَصه، وعرّفه أنّه مِن بيت النبوّة مِن أولاد يعقوب عليهم السلام، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكرَّم، لا سيّما في دار نبيّ مِن أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام.[٣]

وقيل: ليس بمُستنكَر منه عليه السلام أن يقبل الأجرَ لاضطرار الفقر والفاقة. وقد رُوي عن عطاء بن السائب[٤] أنّه عليه السلام رفع صوته بدعائه لِيُسمِعَها،[٥] ولذلك قيل له: ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾... إلخ، ولعلّه عليه السلام إنّما فعله ليكون ذريعةً إلى استدعائه، لا إلى استيفاء الأجر.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وهي التي استدعَته إلى أبيها، وهي التي زوّجها مِن موسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: لرَعي الغنم، والقيام بأمرها،

---

١ وفي هامش م: وهو الشرب الثاني، سمّى به ما يُعَلّ به. «منه».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٥/٤.

٣ ط س: عليهم السلام.

٤ هو عطاء بن السائب الثقفي مولاهم، الكوفي، أبو السائب، وقيل: أبو زيد (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م)، الإمام، الحافظ، محدّث الكوفة. رَوى عن أبيه السائب بن زيد، وعن أنس بن مالك، وعن عبد الله بن أبي أوفى، وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: «عطاء ثقة ثقة، رجل صالح». وقال: «مَن سمع منه قديمًا كان صحيحًا، ومَن سمع منه حديثًا لم يكن بشيء». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١١١/٦.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢١٧/١٨.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل جارٍ مَجرى الدليل على أنّه حقيق بالاستئجار، وللمبالغة في ذلك جُعِل ﴿خَيْرَ﴾ اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾، وذُكِر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنّه أمين مجرَّب.

رُوي أنّ شعيبًا عليه السلام قال لها: «وما أَعلَمَكِ بقوّته وأمانته؟»، فذكرَتْ ما شاهدَتْ منه عليه السلام مِن إقلال الحجَر، ونزعِ الدلْو، وأنّه صوَّبَ رأسه حتّى بلَّغَتْه رسالته، وأَمَرَها بالمشي خلفَه.[1]

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[٢٧٦ظ] ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ / أي: تكونَ أَجيرًا لي، أو تُثيبَني، مِن "أَجَرتُه كذا" إذا أثبتَه إيّاه. فقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ على الأوّل ظرف، وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف، أي: رِعْيَةَ ثماني حِجج.

ونُقل عن المبرّد: أنّه يقال: "أَجَرْتُ داري ومَملوكي" غيرَ ممدود، و"آجَرْتُ" ممدودًا،[2] والأوّل أكثر. فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفًا، والمعنى: على أن تأجرني نفسَك. وقوله تعالى: ﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف كالوجه الأوّل.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾[3] في الخدمة والعمل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فهو مِن عندك بطريق التفضّل، لا مِن عندي بطريق الإلزام عليك. وهذا مِن شعيب[4] عرضٌ لرأيه على موسى عليهما السلام، واستدعاء منه للعقد، لا إنشاءٌ وتحقيق له بالفعل.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر، أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال. واشتقاق "المَشقّة" مِن "الشَّقّ"، فإنّ ما يصعب عليك يشُقّ عليك اعتقادك في إطاقته، ويوزّع رأيك في مُزاولته.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٧٥.

٢ تحرير ألفاظ التنبيه للنووي، ص ٢١٩.

٣ س: عشر.

٤ س + عليه السلام.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسن المعاملة، ولينِ الجانب، والوفاءِ بالعهد. ومراده عليه السلام بالاستثناء التبرّكُ به، وتفويضُ أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليقُ صلاحه بمشيئته تعالى.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ذلك الذي قلتَه وعاهدتني فيه وشارطتَني عليه قائمٌ وثابتٌ بيننا جميعًا، لا يخرج عنه واحد منّا، لا أنا عمّا شَرطتَ عليّ، ولا أنت عمّا شَرطتَ على نفسك.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي: أكثرَهما، أو أقصرَهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: وَفَّيتُكَهُ بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ تصريح بالمراد، وتقريرٌ لِأمرِ الخِيَرة، أي: لا عدوانَ عليّ بطلب الزيادة على ما قضيتُه مِن الأجلَين.

وتعميم انتفاء العدوان لكِلا الأجلَين بصَدَد المشارطة مع عدم تحقّق العدوان في أكثرهما رأسًا للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء، أي: كما لا أُطالَب بالزيادة على العشر، لا أُطالَب بالزيادة على الثماني، أو أيّما الأجلَينِ قضيتُ فلا إثمَ عليّ،[1] يعني كما لا إثمَ عليّ في قضاء الأكثر، لا إثمَ عليّ في قضاء الأقصَر فقط.

/ وقُرئ: "أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ"،[2] فـ"مَا" مزيدة لتأكيد القضاء، كما أنّها [٢٧٧و] في القراءة الأُولى مزيدة لتأكيد إبهامِ "أيّ" وشياعِها.

وقُرئ: "أَيْمَا" بسكون الياء،[3] كقول مَن قال:

تنظَّرتُ نصرًا والسِّماكَين أيْهُمَا ... عليّ مِن الغيثِ اسْتَهلَّت مَواطِرُهْ[4]

---

١ س - عليّ.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٠٠/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٦٧.

٤ للفرزدق في ديوانه، ٤٦٢/١. "تَنظَّرت": انتظرتُ في مُهلة. و"نَصر": اسم رجل. و"السِّماكين": كوكبان، يقال لأحدهما: الأعزَل، وهو مِن منازل القمر، ويقال للآخر: السِّماك الرامح، وليس مِن المنازل. و"أيْهُما": مخفّف "أيّهُما"، وهو محلّ الاستشهاد. و"استَهلَّت": صبَّت. | و"المَواطر": جمع ماطِرة، صفةٌ للسحائب، أي: صبَّت سحائبه المَواطر. **شرح شواهد المغني** للسيوطي، ٢٣٦/١.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن الشروط الجارية بيننا ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد وحفيظ، فلا سبيلَ لأحدٍ منّا إلى الخروج عنه أصلًا. وليس ما حُكي عنهما عليهما السلام تمامَ ما جرى بينهما مِن الكلام في إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة وإيقاعِهما؛[1] بل هو بيان لِما عزَما عليه واتّفقا على إيقاعه حسبما يتوقّف عليه مَساق القصّة إجمالًا مِن غير تعرّض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلًا.

رُوي أنّهما لمّا أتمّا العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام: «ادخُل ذلك البيت، فخذ عصًا مِن تلك العِصِيّ»، وكانت عنده عِصيّ الأنبياء عليهم السلام، فأخذَ عصًا هبط بها آدم عليه السلام مِن الجنّة، ولم يزَل الأنبياء يتوارثونها حتّى وقعت إلى شعيب عليه السلام، فمسّها وكان مكفوفًا، فضَنَّ[2] بها، فقال: «غيرَها»،[3] فما وقع في يده إلّا هي سبعَ مرّات، فعَلِم أنّ له شأنًا.[4]

وقيل: أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام، فكانت معه حتّى لقي بها موسى ليلًا.[5]

وقيل: أودعها شعيبًا مَلَكٌ في صورة رجل، فأمر بنته أن تأتيه بعصًا، فأتَتْه بها، فردّها سبع مرّات، فلم يقع في يدها غيرُها، فدفعها إليه، ثمّ نَدِم؛ لأنّها وديعة، فتَبِعه فاختصما فيها، ورضيا أن يَحكم بينهما أوّلُ طالع، فأتاهما المَلَك فقال: / «ألقِياها، [٢٧٧ظ] فمَن رفعها فهي له»، فعالجها الشيخ فلم يُطِقها، ورفعها موسى عليهما السلام.[6]

وعن الحسَن رحمه الله:[7] «ما كانت إلّا عصًا مِن الشجر اعترَضها اعتراضًا».[8] وعن الكلبي رحمه الله: «الشجرة التي منها نودي شجرة العوسَج، ومنها كانت عصاه».[9]

---

١ ط س م - وإيقاعِهما. ["صح" في هامش م].
٢ وفي هامش م: أي: بَخِل بها. «منه».
٣ وفي هامش م: أي: خُذ غيرها. «منه».
٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣. ونحوه في **جامع البيان** للطبري، ٢٣٣/١٨.
٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٦ ط س: عليه السلام. | **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٤٥/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.
٧ ط س: رضي الله عنه.
٨ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣؛ **تفسير الرازي**، ٥٩٥/٢٤. قال الرازي: «أي: أخذَها مِن عرض الشجر، يقال: "اعتَرَض" إذا لم يتخيّر».
٩ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٨٤/١٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٣.

ولمّا أصبح قال له شعيب صلوات الله عليهما: «إذا بلغتَ مَفرِق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإنّ الكلأَ وإن كان بها أكثر إلّا أنّ فيها تِنّينًا أخشاه عليك وعلى الغنم»، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفّها، ومشى على أثرها، فإذا عُشب وريف لم يُرَ مثله، فنام فإذا بالتنّين قد أقبل، فحارَبَتْه العصا حتّى قتَلَتْه، وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية، فلمّا أبصرها دامية والتنّينَ مقتولًا ارتاح لذلك، ولمّا رجع إلى[1] شعيب عليه السلام مسّ الغنمَ فوجدها مَلْأى البطون، غزيرةَ اللبن، فأخبره موسى عليهما السلام بالشأن، ففرِح وعلِم أنّ لموسى والعصا شأنًا، وقال له: «إنّي وهبت لك مِن نِتاج غنمي هذا العامَ كلَّ أدْرَع ودَرْعاء»،[1] فأُوحي إليه في المنام: أنِ اضرب بعصاك مستقى الغنم، ففعل، ثمّ سقى، فما أخطأَتْ واحدة إلّا وضَعَتْ أدْرَعَ ودَرْعاء، فوفّى له بشرطه.[2]

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فصيحة، أي: فعقَدَ العقدين، وباشرَ موسى ما التزمه، فلمّا أتمّ الأجل ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ﴾ نحو مِصر بإذنٍ مِن شعيب عليهما السلام.[3] رُوي أنّه عليه السلام قضى أبعدَ الأجلَين، ومكَثَ عنده بعد ذلك عشر سنين، ثمّ عزم على العود إلى مِصر، فاستأذنه في ذلك فأذِن له، فخرج بأهله.

/ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي: أبصرَ مِن الجهة التي تلي الطور ﴿نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخَبرِ الطريق، وقد كانوا ضلّوه، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ أي: عُود غليظ، سواء كانت في رأسه نارٌ أو لا، قال قائلهم: [٢٧٨و]

باتَت حَواطب ليلى يلتمِسْن لها جزل الجِذَى غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ[4]

---

١ الأدْرَعُ مِن الخيل والشاء: ما اسودّ رأسه وابيضّ سائره، والأنثى درعاء. الصحاح للجوهري، «درع».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٧/٣.

٣ س: عليه السلام.

٤ لابن مُقبِل في ديوانه، ص ٨٠. "الحَواطِب": الجواري اللّاتي يطلُبنَ الحطَب. و"الجَزل": الحطَب اليابس العظيم، و"الخَوّار": الضعيف، يقال: "رُمحٌ خَوّار"، و"رَجلٌ خَوّار". و"الدعَر": مصدرُ دَعَرَ دَعَرًا؛ فهو عودٌ دَعِر: رديءٌ كثيرُ الدخان. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

وقال:

وألقى على قَبسٍ مِن النار جَذوة شديدًا عليها حرّها والتهابها[1]

ولذلك بُيِّن بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[2] وبضمّها،[3] وكلُّها لغات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفِئون.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النارَ التي آنسها ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ[4] ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: أتاه النداء مِن الشاطئ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متّصل بـ"الشاطئ"، أو صلة لـ﴿نُودِيَ﴾. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلِ اشتمال مِن ﴿شَٰطِئِ﴾؛ لأنّها كانت نابتة على الشاطئ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا وإن خالَف لفظًا لِما في طه[5] والنمل[6] لكنه موافق له في المعنى المراد.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾،[7] وكلاهما مفسِّر لـ﴿نُودِيَ﴾.[8] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فصيحة مفصِحة عن جُمَل قد حُذفت تعويلًا على دلالة الحال عليها، وإشعارًا بغاية سرعة تحقّق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت ثعبانًا فاهتزّت، فلمّا رآها تهتزّ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: في سرعة الحركة مع غاية عِظَم جُثّتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: منهزِمًا مِن الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

---

١ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٦/٤. و"الجَذْوة": القَبسة مِن النار، والمراد بها النميمة؛ أي: ألقى على قبس جَذوة مِن النميمة اشتدّ عليه حرُّها والتهابُها؛ لأنّها هَيَجَت نار العداوة والفتنة بين القوم. فتوح الغيب للطيبي، ٤٧/١٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٤ م ط س: الوادي.

٥ طه، ١١/٢٠-١٢.

٦ النمل، ٩/٢٧.

٧ في الآية السابقة.

٨ في الآية السابقة.

أي: لم يرجع. ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: قيل: يا موسى ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ عن المخاوف، فإنّه لا يخاف لديّ المرسلون.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أي: أدخِلها فيه ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي: عيب، / ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: يديكَ المبسوطتين لتتّقي بهما الحيّة [٢٧٨ظ] كالخائف الفَزِع، بإدخال اليمنى تحت العَضُد الأيسر، واليسرى تحت الأيمن، أو بإدخالهما في الجَيب، فيكون تكريرًا لِغرضٍ آخر، هو أن يكون ذلك في وجه العدوّ إظهارَ جرأة، ومبدأً لِظهور معجزة.

ويجوز أن يُراد بالضمّ التجلّد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانًا، استعارةً مِن حال الطائر، فإنّه إذا خاف نشَرَ جناحَيه، وإذا أمِن واطمأنّ ضمّهما إليه.

﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ أي: مِن أجل الرهب، أي: إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلّدًا وضبطًا لنفسك. وقُرئ بضمّ "الراء" وسكون "الهاء"،[1] وبضمّهما،[2] والكلُّ لغات.

﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد. وقُرئ بتشديد "النون"،[3] فالمخفّف مثنّى "ذاك"، والمشدّد مثنّى "ذلك". ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾ حُجّتان نيّرتان. و"بُرهان" "فُعلان"، لقولهم: "أَبْرَهَ الرجلُ" إذا جاء بالبرهان، مِن قولهم: "بَرِهَ الرجلُ" إذا ابيضَّ، ويقال للمرأة البيضاء: "بَرْهاء"، و"بَرَهْرَهة"، ونظيرُه تسمية الحُجّة "سلطانًا" مِن "السَّلِيط"، وهو الزيت، لإنارتها. وقيل: هو "فُعلال"، لِقولهم: "بَرْهَنَ".

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾، أي: كائنان منه تعالى ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ واصِلان ومنتهيان إليهم.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: "الرَّهَب" بفتح الراء والهاء. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والمفضّل والجحدري وابن عبيد وقتادة وعيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٧.

٣ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحِقّاءَ بأن نُرسلك إليهم بهاتين المعجزتَين الباهِرتين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾

[٢٧٩و] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا / فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابَلتها.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: مُعِينًا، وهو في الأصل اسم ما يُعان به، كـ"الدِّفْء". وقُرئ: "رِدًا" بالتخفيف.[1] ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتلخيص الحقّ، وتقرير الحُجّة، بتوضيحها وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعني عند المُحاجّة. وقيل: المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه، لكنّه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى السبب. وقُرئ: "يُصَدِّقْنِي" بالجزم[2] على أنّه جواب الأمر.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنُقوّيك به، فإنّ قوّة الشخص بشِدّة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبّر عنه باليد، وشدّتِها بشِدّة العَضُد.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: تسلّطًا وغلبةً. وقيل: حُجّة،[3] وليس بذاك. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ، أو مُحاجّةٍ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلّق بمحذوف قد صُرّح به في مواضع أُخَر، أي: اذهبا بآياتنا، أو بـ﴿نَجْعَلُ﴾، أي: نسلّطكما بآياتنا، أو بمعنى ﴿لَا يَصِلُونَ﴾، أي: تمتنعون منهم بها. وقيل: هو قَسَم، وجوابه ﴿لَا يَصِلُونَ﴾. وقيل: هو بيان لـ﴿الْغَالِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بمعنى أنّه صلة لِما يُبيّنه، أو صلة له على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي".

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر أبدل مِن التنوين ألفًا في الحالين، ووافقه نافع في الوقف. النشر لابن الجزري، ٤١٤/١.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤١٠/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧٧/٤.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على صحّة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى. والمراد بها العصا واليد؛ إذ هما اللّتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك. / والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مرّ سرّه في سورة طه.[1] [٢٧٩ظ]

﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: سِحرٌ مُختَلَق لم يُفعل قبلَ هذا مثله، أو سِحرٌ تعمله ثمّ تفتريه على الله تعالى، أو سِحرٌ موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ أي: السحر، أو ادّعاء النبوّة ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: واقعًا في أيّامهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يريد به نفسه. وقُرئ: "قَالَ" بغير "واو"؛[2] لأنّه جواب عن مَقالهم. ووجه العطف أنّ المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميّز صحيحَهما مِن الفاسد.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة المحمودة في الدار، وهي الدنيا، وعاقبتها الأصليّة هي الجنّة؛ لأنّها خلقت مَجازًا إلى الآخرة، ومزرعةً لها، والمقصودُ بالذات منها الثواب، وأمّا العقاب فمِن نتائج أعمال العصاة وسيّئات الغُواة. وقُرئ: "يَكُونُ" بالياء التحتانيّة.[3]

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجُون عن محذور.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

---

١ طه، ٢٠/٤٢.

٢ قرأ بها ابن كثير، وكذلك هي في مصحف أهل مكّة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤١.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٣.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قاله اللعين بعدما جَمع السحرة وتصدّى للمعارضة، فكان مِن أمرهم ما كان. ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اصنع آجُرًّا ﴿فَٱجْعَل لِّى﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي: قصرًا رفيعًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنّه توهّم أنّه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الرُّقِيّ إليه. ثمّ قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، / أو أراد أن يبني له رَصَدًا يترصّد منه أوضاع [٢٨٠و] الكواكب، فيرى هل فيها ما يدلّ على بعثة رسولٍ وتبدّل دولةٍ.

وقيل: المراد بنفي العلم نفيُ المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى[1] ٱلْأَرْضِ﴾[2] [يونس، ١٠/١٨]، فإنّ معناه: بما ليس فيهنّ، وهذا مِن خواصّ العلوم الفعليّة، فإنّها لازمة لتحقّق معلوماتها، فيلزم مِن انتفائها انتفاءُ معلوماتها، ولا كذلك العلوم الانفعاليّة.

قيل: أوّل مَن اتّخذ الآجُرّ فرعونُ، ولذلك أمرَ باتّخاذه على وجه يتضمّن تعليم الصنعة، مع ما فيه مِن تَعَظّم، ولذلك نادى هامانَ باسمه بـ"يا" في وسط الكلام.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للجزاء. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "الجيم"،[3] مِن "رَجَع رُجوعًا"، والأوّل مِن "رَجَعَ رَجْعًا"، وهو الأنسب بالمقام.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عَقيبَ ما بلغوا مِن الكفر والعتوّ أقصى الغايات، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ قد مرّ تفصيله. وفيه مِن تفخيم شأن الأخذ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذين المَنبوذين ما لا يخفى، كأنّه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كفّ

---

[1] م ط س - ولا في.
[2] م ط س: والأرض.
[3] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

وطرَحهم في البحر. ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر، ٦٧/٣٩].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبَيِّنْها للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: صيّرناهم في عهدهم ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ﴾ الناسَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ما يؤدّي إليها مِن الكفر والمعاصي، أي: قدوةً يقتدي بهم أهل الضلال، لِما صَرفوا اختيارَهم إلى تحصيل تلك الحالة. وقيل: سمَّيناهم أئمّةً دعاةً إلى النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، فالأنسب حينئذ أن يكون الجَعلُ بَعدَهم فيما بين الأمم، ويكون الدعوة إلى نفس النار. وقيل: معنى الجَعل منعُ الألطاف الصارفة عن ذلك. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طَردًا وإبعادًا مِن الرحمة، ولعنًا مِن اللاعنين، حيث لا يزال يلعنُهم الملائكة عليهم السلام والمؤمنون خلَفًا عن سلَفٍ.

/ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المطرودين المُبعَدين. وقيل: مِن الموسومين بعلامةٍ مُنكَرة، كزُرقة العيون، وسوادِ الوجه، قالَه ابن عبّاس.[1] يقال: "قبّحه الله وقبّحه" إذا جعله قبيحًا. وقال أبو عبيدة:[2] «﴿مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ مِن المُهلَكين».[3] و﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على أنّ "اللام" للتعريف، لا بمعنى "الذي"، أو بمحذوف يفسّره ذلك، كأنّه قيل: وقَبّحوا يوم القيامة، نحو: ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء، ١٦٨/٢٦]. [٢٨٠ظ]

---

١ ط س + رضي الله عنهما. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

٢ م: وقيل [صح" في هامش م].

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٢/١٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام. والتعرّض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه تمهيدًا لِما يعقُبه مِن بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ إهلاك القرون الأولى مِن موجِبات اندراس مَعالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدّيَين إلى اختلال نظام العالَم وفساد أحوال الأمم المستدعيَين للتشريع الجديد، بتقرير الأصول الباقية على مرّ الدهور، وترتيبِ الفروع المتبدّلة بتبدّل العصور، وتذكيرِ أحوال الأمم الخالية الموجِبة للاعتبار، كأنّه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجةٍ إلى إيتائها.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنوارًا لِقلوبهم تُبصِر بها الحقائق، وتُمَيِّز بين الحقّ والباطل، حيث كانت عُميًا عن الفهم والإدارك بالكلّيّة، فإنّ البصيرة نور القلب الذي به يَستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تُبصِر.

﴿وَهُدًى﴾ أي: هدايةً إلى الشرائع والأحكام التي هي سبُل الله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال مَن عمِل به رحمةَ الله تعالى. وانتصاب الكلّ على الحاليّة مِن الكتاب على أنّه نفس البصائر والهدى والرحمة، أو على حذف المضاف، أي: ذا بصائر... إلخ. وقيل: على العلّة، أي: آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرجى منهم التذكّر، وقد مرّ تحقيق القول في ذلك عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مِن سورة البقرةِ [البقرة، ٢/٢١].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أنّ إنزال القرآن الكريم أيضًا واقع في زمان شدّة مَساس الحاجة إليه، واقتضاءِ الحكمة له البتّة، وقد صُدِّر بتحقيق كونِه وحيًا صادقًا مِن عند الله عزّ وجلّ ببيان أنّ الوقوف على ما فصِّل مِن الأحوال لا يتسنّى إلّا بالمشاهدة، أو التعلّمِ ممّن شاهدها،

وحيث انتفى كلاهما تبيّن أنّه بوحيٍ مِن علّام الغيوب لا محالةَ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ الآية [آل عمران، ٤٤/٣]، أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه[1] الميقات، / على حذف الموصوف وإقامة الصفة مُقامه، أو الجانب الغربي على [٢٨١و] إضافة الموصوف إلى الصفة، كـ"مَسْجِدِ الجامِعِ".

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عَهِدنا إليه، وأحكَمْنا أمرَ نبوّته بالوحي وإيتاء التوراة، ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مِن جملة الشاهدين للوحي، وهم السبعون المختارون للميقات، حتّى تشاهد ما جرى مِن أمر موسى في ميقاته وكَتبة التوراة له في الألواح، فتخبره للناسِ.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: ولكنّا خَلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة، ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتَمادَى الأمَدُ فتغيّرت الشرائع والأحكام، وعَمِيت عليهم الأنباء لا سيّما على آخرهم، فاقتضى الحالُ التشريع الجديد، فأوحينا إليك. فحُذف المستدرَك اكتفاءً بذكر ما يوجبه ويدلّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ نفيٌ لاحتمال كون معرفته عليه السلام للقصّة بالسماع ممّن شاهَدها، أي: وما كنتَ مُقيمًا في أهل مدين مِن شعيب والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأُ على أهل مدين بطريق التعلّم منهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالقصّة؛ إمّا حال مِن المستكِنّ في ﴿ثَاوِيًا﴾، أو خبر ثان لـ﴿كُنتَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إيّاك، ومُوحين إليك تلك الآيات ونظائرَها.

---

[1] س - فيه.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: وقتَ ندائنا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،[1] واستنبائِنَا إيّاه، وإرسالِنا له إلى فرعون، ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر بغيره لرحمةٍ عظيمةٍ كائنة منّا لك وللناس. وقيل: علّمناك. وقيل: عرّفناك ذلك،[2] وليس بذاك كما ستعرفه.

والالتفات إلى اسم الربّ للإشعار بعلّة الرحمة، وتشريفِه عليه السلام بالإضافة، وقد اكتُفِي عن ذكر المستدرَك ههنا بذِكر ما يوجبه مِن جهته تعالى، كما اكتُفِي عنه[3] في الأوّل بذِكر ما يوجبه مِن جهة الناس، وصُرِّح به فيما بينهما تنصيصًا على ما هو المقصود، وإشعارًا بأنّه المراد فيهما أيضًا، ولله درُّ شأن التنزيل.

[٢٨١ظ] وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلّق بالفعل / المعلَّل بالرحمة، فهو ما ذكرنا مِن إرساله عليه السلام بالقرآن حتمًا، لِما أنّه المعلَّل بالإنذار، لا تعليمُ ما ذُكر. وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع[4] على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، أي: لم يأتِهم نذير لوقوعهم في فترة بينكَ وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنةً، أو بينكَ وبين إسماعيل، بناءً على أنّ دعوة موسى وعيسى كانت مختصّة ببني إسرائيل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون بإنذارك.

وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر والثَّواءِ في أهل مدين والنداءِ للتنبيه على أنّ كلًّا مِن ذلك برهان مستقِلّ على أنّ حكايته عليه السلام للقصّة بطريق الوحي الإلهي، ولو ذُكر أوّلًا نفي ثَوائه عليه السلام في أهل مدين،

---

١ القصص، ٢٨/٣٠.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤١٨؛ تفسير الرازي، ٢٤/٦٠٤.

٣ ط س - عنه.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

ثمّ نفيُ حضوره عليه السلام عند النداء، ثمّ نفيُ حضوره عند قضاء الأمر، كما هو الموافق للترتيب الوقوعي، لَربّما توهّم أنّ الكلّ دليل واحدٌ على ما ذُكر، كما مرّ في قصّة البقرة.[1]

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما اقترفوا مِن الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿تُصِيبَهُم﴾، داخل في حيّز ﴿لَوْلَا﴾ الامتناعيّة على أنّ مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه، لا امتناعُ المعطُوف عليه، وإنّما ذِكرُه في حيّزها للإيذان بأنّه السبب المُلجئ لهم إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولًا مؤيَّدًا مِن عندك بالآيات، ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الظاهرة على يده، وهو جواب ﴿لَوْلَا﴾ الثانية.

﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بها. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ الأولى محذوف ثِقةً بدلالة الحال عليه، والمعنى: لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم التي قدّموها ما أرسلناك، لكن لمّا كان قولهم ذلك محقَّقًا لا مَحيدَ عنه أرسلناك قطعًا لمَعاذيرهم بالكلّيّة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن المنزَّل عليه عليه الصلاة والسلام[2] ﴿قَالُوا۟﴾ تعنّتًا واقتراحًا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يَعنونه عليه السلام ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ مِن الكتاب المنزّل جملةً. وأمّا اليد والعصا فلا تعلُّق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه السلام.

---

١ البقرة، ٧٣/٢.

٢ س: عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكونِ ما قالوه تعنّتًا مَحضًا، لا طلَبًا لِما يرشدهم إلى الحقّ، أي: ألَم يكفروا مِن قبلِ هذا القول بما أوتي موسى مِن الكتاب كما كفروا بهذا الحقّ؟

[٢٨٢و] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ استئناف مَسوق لتقرير كفرهم المستفادِ / مِن الإنكار السابق وبيانِ كيفيّته. وقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هما -يَعنون: ما أوتي محمّد وما أوتي موسى عليهما السلام- سِحران ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا بتصديق كلّ واحد منهما الآخرَ، وذلك أنّهم بَعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود في عيدٍ لهم، فسألوهم عن شأنه عليه السلام، فقالوا: إنّا نجده في التوراة بنَعته وصفته، فلمّا رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي: بكلّ واحد مِن الكتابَين ﴿كَافِرُونَ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وتأكيد لكفرهم المفهوم مِن تسميتهما سِحرًا، وذلك لغاية عتوّهم وتماديهم في الكفر والطغيان.

وقُرئ: "سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا"،[٢] يعنون موسى ومحمّدًا صلّى الله تعالى[٣] عليهما وسلّم. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل وقيل.

ألا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ ممّا أوتياه مِن التوراة والقرآن وسمّيتموهما "سِحرين"؛ فإنّه نصّ فيما ذكر. وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي: إن تأتوا به أتّبعه. ومثلُ هذا الشرط ممّا يأتي به مَن يُدِلّ بوضوح حجّته، وسُنُوح[٤] مَحجّته؛ لأنّ الإتيان بما هو أهدى مِن الكتابين أمرٌ بيّن الاستحالة، فيوسّع دائِرةَ الكلام للتبكيت والإفحام.

---

١ قاله الكلبي. انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٨١٠/١٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٨/١٥.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤١/٢.

٣ س - تعالى.

٤ السُّنُوح مصدر "سَنَح" بمعنى "عَرَض"، يقال: "سنَحَ لي رأي في كذا"، أي عَرَض. انظر: الصحاح للجوهري، «سنح».

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّهما سِحران مختلَقان. وفي إيراد كلمة ﴿إن﴾ مع امتناع صدقهم نوع تهكّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما كلّفْتَهم مِن الإتيان بكتابٍ أهدى منهما، كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، وإنّما عُبّر عنه بالاستجابة إيذانًا بأنّه عليه السلام على كمال أَمْنٍ مِن أمره، كأنّ أمره عليه السلام لهم بالإتيان بما ذُكِر دعاءٌ لهم إلى / أمرٍ يريدُ وقوعَهُ. و"الاستجابة" تتعدّى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي [٢٨٢ظ] بـ"اللام"، فيُحذف الدعاء عند ذلك غالبًا، ولا يكاد يقال: استجاب الله له دعاءه.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغةَ مِن غير أن يكون لهم متمسَّك ما أصلًا، إذ لو كان لهم ذلك لأتَوا به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضلّ ممّن اتّبع هواه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو أضلّ مِن كلّ ضالّ، وإن كان ظاهرَ السَّبك لنفي الأضَلّ، لا لنفي المساوي كما مرّ في نظائره مرارًا. وتقييد اتّباع الهَوَى بعدم الهدى مِن الله تعالى لزيادة التقرير، والإشباعِ في التشنيع والتضليل، وإلّا فمقارنته لهدايته تعالى بيّنة الاستحالة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتّباع الهوى، والإعراضِ عن الآيات الهادية إلى الحقّ المبين.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ وقُرئ بالتخفيف،[1] أي: أنزلنا القرآن عليهم متواصلًا بعضه إثرَ بعض حسبَما يقتضيه الحكمة والمصلحة، أو متتابعًا وعدًا ووعيدًا، قصصًا وعِبَرًا ومواعظ ونصائح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون بما فيه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل إيتاء القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أربعون مِن أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر مِن الحبشة، وثمانية مِن الشام.[1]

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: الحقّ الذي كنّا نعرف حقّيته. وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمرًا متقادِم العهد، لِما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدّمة، / وأنّهم [٢٨٣و] على دين الإسلام قبل نزول القرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرّةً على إيمانهم بكتابهم، ومرّةً على إيمانهم بالقرآن ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانَين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى مَن هاجرهم مِن أهل دينهم ومِن المشركين.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالطاعة المعصيةَ، لقوله عليه السلام: «أَتْبِعِ الحسنةَ السيّئةَ تَمْحُها».[2]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨١/٤.

٢ سنن الترمذي، ٣٥٥/٤ (١٩٨٧)؛ المستدرك للحاكم، ١٢١/١ (١٧٨).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ مِن اللاغين ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ عن اللغو تكرّمًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان، ٧٢/٢٥]. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لَهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتارَكة والتوديع، ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتَهم، ولا نريد مخالطتَهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هدايةً موصِلةً إلى البُغية لا محالةَ ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مِن الناس، ولا تقدر على أن تُدخله في الإسلام، وإن بذلتَ فيه غاية المجهود، وجاوزتَ في السعي كلَّ حدّ معهود، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه، فيدخله في الإسلام.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدّين لذلك. والجمهور على أنّها نزلت في أبي طالب، فإنّه لمّا احتضر جاءه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا عمّ؛ قل: "لا إله إلّا الله" كلمةً أحاجّ بها لك عند الله». قال: «يا ابن أخي؛ قد علمتُ إنّك لصادق؛ ولكنّي أكره أن يقال: خَرِعَ[1] عند الموت، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لَقلتُها، ولَأقررتُ بها عينك عند الفراق، لِما أرى / مِن شدّة وَجدِك ونصيحتك، ولكنّي سوف أموت على مِلّة الأشياخ: [٢٨٣ظ] عبد المطّلب، وهاشم، وعبد مناف».[2]

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ[3] نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ نزلت في الحارث بن عثمان بن نَوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال:

---

١ وفي هامش م: الخَرَع: الجُبن. «منه».

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٥٠/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٢١/١٧. ونحوه في صحيح مسلم، ٥٥/١ (٢٥).

٣ س - معك.

«نحن نعلم أنّك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتّبعناك وخالَفْنا العربَ وإنّما نحن أكَلةُ رأس أن يتخطّفونا مِن أرضنا»،[1] فرُدَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرمًا ذا أمْنٍ لحُرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون.

﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ وقُرئ: "تُجْبَى"،[2] أي: يُجمع ويُحمل إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن كلّ أوب. والجملة صفة أخرى لـ﴿حَرَمًا﴾، دافِعةٌ لِما عَسَى يُتوهّم مِن تَضرّرهم بانقطاع المِيرة،[3] ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكِر -وهم عبدةُ أصنام- فكيف يخافون التخطّفَ إذا ضمّوا إلى حرمة البيت حرمةَ التوحيد؟

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: جهَلة لا يتفطّنون له، ولا يتفكّرون ليعلموا ذلك. وقيل: هو متعلّق بقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، أي: قليل منهم يتدبّرون فيعلمون أنّ ذلك رزق مِن عند الله تعالى؛ إذ لو علموا لَما خافوا غيره.

وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على أنّه مصدر مؤكِّد لمعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، أو حال مِن "الثمرات" على أنّه بمعنى مرزوق، لتخصّصها بالإضافة. ثمّ بُيّن أنّ الأمر بالعكس، وأنّهم أحقّاء بأن يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وكثير مِن أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العَيْش والدَّعةِ حتّى أشِروا، فدمّرنا عليهم، وخرّبنا ديارَهم، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةٌ بما ظلموا، ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِن بعدِ تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا زمانًا قليلًا؛ إذ لا يَسكنها إلّا المارّة يومًا أو بعضَ يوم، أو لم يبقَ مَن يسكنها إلّا قليلًا مِن شُؤم معاصيهم.

[٢٨٤و] ﴿وَكُنَّا نَحْنُ / ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلُفْهم أحد يتصرّف تصرُّفهم في ديارهم وسائر ذاتِ أيديهم. وانتصاب ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزع الخافض، أو بجعلها ظرفًا بنفسها، كقولك: "زيدٌ ظنّي مقيمٌ"، أو بإضمار زمان مضاف إليه، أو بجعله مفعولًا لـ﴿بَطِرَتْ﴾ بتضمين معنى "كفرَت".

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٤٢٢؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/١٨١.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٤٢.

٣ المِيرَةُ، بالكسر: جَلَبُ الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للعناية الربّانيّة إثرَ بيان إهلاك القرى المذكورة، أي: وما صحّ وما استقام -بل استحال- في سنّته المبنيّة على الحِكم البالغة، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يُهلِك القرى قبل الإنذار؛ بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وقصَبتها التي هي أعمالها وتوابعها، لكون أهلها أفطَنَ وأنبَل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقةَ بالحقّ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجّة وقطع المعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.[1] والالتفات إلى نون العظمة لتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما كنّا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أمّها رسولًا يدعوهم إلى الحقّ ويرشدهم إليه في حالٍ مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفرِ بآياتنا، فالبعثُ غاية لعدم صحّة الإهلاك بموجَب السنّة الإلهيّة، لا لِعدم وقوعه حتّى يلزم تحقّق الإهلاك عقيبَ البعث، وقد مرّ تحقيقه في سورة بني إسرائيل.[2]

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِن أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: فهو شيء شأنه أن يُتمتَّعَ ويُتزيَّنَ به أيّامًا قلائل. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه مِن ذلك؛ لأنّه لذّة خالصة عن شوائب الألم، وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمة الهمّ، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنّه أبدي.

---

١ القصص، ٤٧/٢٨.

٢ الإسراء، ٥٨/١٧.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ألا تتفكّرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. / وقُرئ بـ"الياء"[1] على الالتفات المبنيّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتهم. [٢٨٤ظ]

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعدًا بالجنّة، فإنّ حُسن الوعد بحُسن الموعود، ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: مدرِكُه لا محالةَ لاستحالة الخُلف في وعده تعالى، ولذلك جيء بالجملة الاسميّة المفيدة لتحقّقه البتّة، وعُطفت بـ"الفاء" المنبئة عن معنى السببيّة.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مَشُوب بالآلام منغَّص بالأكدار، مستتبع للتحسّر على الانقطاع. ومعنى "الفاء" الأولى ترتيبُ إنكار التشابُه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها مِن ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ما عند الله تعالى، أي: أبَعد هذا التفاوت الظاهر يُسوَّى بين الفريقين؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَتَّعْنَٰهُ﴾ داخل معه في حيّز الصلة، مؤكِّد لإنكار التشابه، ومقرّر له، كأنّه قيل: كمَن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثمّ نُحضره أو أحضرناه يوم القيامة النارَ أو العذابَ. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على التحقّق حتمًا. وفي جعله مِن جملة المحضَرين مِن التهويل ما لا يخفى. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة. وقُرئ: "ثُمَّ هْوَ" بسكون "الهاء"[2] تشبيهًا للمنفصل بالمتّصل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بالعطف على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، لاختلافهما عنوانًا وإن اتّحدا ذاتًا، أو بإضمار "اذكر". ﴿فَيَقُولُ﴾ تفسير للنداء ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن السوسي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٢.

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذف المفعولان معًا ثقةً بدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا صدر عنهم حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم مِن الشياطين، أو رؤساؤهم الذين اتّخذوهم أربابًا مِن دون الله تعالى بأن أطاعوهم في كلّ ما أمروهم به ونهَوا عنه.

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أنّه ثبت مقتضاه وتحقّق مؤدّاه، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] وغيرُه مِن آيات الوعيد. وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شموله للأتباع أيضًا لأصالتهم في الكفر واستحقاقِ العذابِ حسبما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]. ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدة إمّا لتفطّنهم أنّ السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال، وجَزمِهم بأنّ العبَدة سيقولون: / هؤلاءِ أضلّونا، وإمّا لأنّ العَبَدة قد قالوه اعتذارًا، وهؤلاء إنّما [٢٨٥و] قالوا ما قالوا ردًّا لقولهم، إلّا أنّه لم يُحْكَ قول العَبَدة إيجازًا لظهوره.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي: هم الذين أغويناهم. فحُذف الراجع إلى الموصول. ومرادهم بالإشارة بيانُ أنّهم يقولون ما يقولون بمَحضر منهم، وأنّهم غيرُ قادرين على إنكاره وردّه.

وقوله تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجواب حقيقة، وما قبله تمهيد له، أي: ما أكرهناهم على الغيّ، وإنّما أغويناهم بطريق الوَسوسة والتسويل، لا بالقَسر والإلجاء، فَغَوَوا باختيارهم غَيًّا مثل غَيّنا باختيارنا. ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ الخبر.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم وممّا اختاروه مِن الكفر والمعاصي هوًى منهم، وهو تقرير لِما قبله، ولذلك لم يعطف عليه، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

أي: ما كانوا يعبدوننا، وإنّما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة متّصلة بقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا﴾، أي: تبرّأنا مِن عبادتهم إيّانا.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إمّا تهكّمًا بهم أو تبكيتًا لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفَرط الحَيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ضرورةَ عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة، ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ قد غشيهم، ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجهٍ مِن وجوه الحِيَل يدفعون به العذاب، أو إلى الحقّ لِما لَقُوا ما لَقُوا. وقيل: ﴿لَوْ﴾ للتمنّي، أي: تمنّوا لو أنّهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على ما قبله، سُئلوا أوّلًا عن إشراكهم، وثانيًا عن جوابهم للرسل الذين نهَوهم عن ذلك.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: صارَت كالعُمْي عنهم لا تهتدي إليهم. وأصله "فعَموا عن الأنباء"، / وقد عُكِس للمبالغة والتنبيه على أنّ ما يحضر [٢٨٥ظ] الذهن يَفيض عليه ويصل إليه مِن خارج، فإذا أخطأ لم يكن له حيلة إلى استحضاره. وتعدية الفعل بـ"على" لتضمّنه معنى الخفاء والاشتباه. والمراد بـ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ إمّا ما طُلِب منهم ممّا أجابوا به الرسل، أو جميعُ الأنباء، وهي داخلة فيه دخولًا أوّليًا. وإذا كانت الرسل عليهم السلام يفوّضون العلم في ذاك المقام الهائل إلى علّام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسئول، فما ظنّك بأولئك الضُّلّال مِن الأمم؟

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب لفَرط الدهشة، أو العلمِ بأنّ الكلّ سواء في الجهل.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ٦٧﴾

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المَهروب. و﴿عَسَىٰ﴾ للتحقيق على عادة الكرام، أو للترجّي مِن قِبَل التائب، بمعنى: فليتوقع الإفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء اختياره مِن غير إيجاب عليه ولا منعٍ له أصلًا. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: التخيّر، كـ"الطِّيَرة" بمعنى "التطيّر". والمراد نفي الاختيار المؤثِّر عنهم، وذلك ممّا لا ريب فيه. وقيل: المراد أنّه ليس لأحد مِن خلقه أن يختار عليه، ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيّده ما رُوي أنّه نزَل في قول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].[1] والمعنى: لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسَل إليهم. وقيل: معناه: ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح.[2]

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزّهَ بذاته تنزّهًا خاصًّا به مِن أن ينازعه أحدٌ، أو يزاحم اختيارُه اختيارَه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا / يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، أو عن مشاركة ما يشركونه به. [٢٨٦و]

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعَداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٧٠﴾

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: المستحقّ للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحقّها إلّا هو ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنّه المُولي للنِّعم كلّها عاجلها وآجلها على الخلق كافّةً،

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٤.

يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمِدُوه في الدنيا بقولهم: "الحمد لله الذي أذهَبَ عنّا الحَزَن"،[1] "الحمد لله الذي صدَقنا وعدَه"،[2] ابتهاجًا بفضله، والتذاذًا بحمده.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في كلّ شيء مِن غير مشاركة فيه لغيره، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيره.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تقريرًا لِما ذُكر: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني؛ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا، مِن "السَّرد"، وهو المتابعة والاطّراد، و"الميم" مزيدة، كما في "دُلَامِص" مِن "الدِّلاص"، يقال: "دِرعٌ دِلاص"، أي: مَلساء ليّنة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفُق الغائر.

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿إِلَـٰهٌ﴾ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ١٠/٣١]، وقولِه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٦٧/٣٠] ونظائرِهما، خلا أنّه قُصِد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة، ولم يُقَل: هل إله... إلخ لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم. وقُرئ: "بِضِئَاءٍ" بهمزتين.[3]

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبّرٍ واستبصارٍ حتّى تُذعِنوا له، وتعملوا بموجَبه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء، أو بتحريكها على مدارٍ فوق الأفق.

---

١ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر، ٣٥/٣٤].

٢ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٣٩/٧٤].

٣ قرأ بها قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ١/٤٠٦.

/ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً مِن متاعب الأشغال. [٢٨٦ظ]
ولعلّ تجريدَ "الضياء" عن ذكر منافعه لكونه مقصودًا بذاته، ظاهِرَ الاستتباع لِما نِيط به مِن المنافع.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على مَن له بصر.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواع المكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا نعمته تعالى فعَلَ ما فعَلَ، أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ منصوب بـ"اذكر". ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريع إثرَ تقريعٍ، للإشعار بأنّه لا شيءَ أجلب لغضب الله عزّ وجلّ مِن الإشراك، كما لا شيءَ أدخَلُ في مرضاته مِن توحيده سبحانه.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطفٌ على ﴿يُنَادِيهِمْ﴾.[1] وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد". والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله، أي: أخرجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ نبيًّا يشهد عليهم بما كانوا عليه، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2] [النساء، ٤/٤١].

---

١ في الآية السابقة.

٢ م س - ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [صُحّح في هامش م].

﴿فَقُلْنَا﴾ لكلٍّ مِن تلك الأمم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحّة ما كنتم تدينون به، ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ يومئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهيّة لا يشاركه فيها أحد، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: غابَ غيبة الضائع ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مِن الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمّه يَصْهَرَ بنِ قَاهَثَ بنِ لاوَى بنِ يعقوب، وموسى عليه السلام ابنُ عمرانَ بنِ قَاهَثَ. وقيل: كان موسى عليه السلام ابنَ أخيه، وكان يسمّى المنوَّر لحسن صورته. وقيل: كان أقرأَ بني إسرائيل للتوراة، ولكنّه نافق كما نافق السامري وقال: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».[1]

ورُوي أنّه لمّا جاوز بهم موسى البحر، وصارت الرسالة والحُبورة[2] والقربان لهارون، وَجَدَ[3] قارون في نفسه وحَسَدَهما، فقال لموسى: «الأمر لكما، ولستُ على شيء، إلى متى أصبر؟» قال موسى عليه السلام: «هذا صنع الله تعالى»، قال: «لا أصدّقك حتّى تأتي بآية»، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ واحد بعصاه، / فحزَمها وألقاها في القبّة التي كان الوحي ينزل إليه فيها، فكانوا [٢٨٧و] يحرسون عصِيَّهم بالليل، فأصبحوا فإذا بعَصا هارون تهتزّ ولها ورق أخضر، فقال قارون: «ما هو بأعجب ممّا تصنع مِن السحر»، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فطلب الفضلَ عليهم، وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلمَهم.[4] قيل: وذلك حين ملّكه فرعون على بني إسرائيل.[5] وقيل: حسَدَهم، وذلك ما ذُكر منه في حقّ موسى وهارون عليهما السلام.[6]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٣٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٨/٣١٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٦٠.

٢ الحُبورة: مصدر "حَبُر" -كـ"قَضُو"- إذا صار حَبْرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٦/١٤٤.

٣ وفي هامش م: غضِب وحزِن. «منه».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٦٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٣٠.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٣٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٨٥.

٦ وهو قوله: «إذا كانت النبوّة لموسى، والمَذبح والقربان لهارون، فَمَا لي؟».

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: الأموالِ المدّخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتح صناديقه، وهو جمع "مِفتَح" بالكسر، وهو ما يُفتَح به. وقيل: خزائنَه، وقياس واحدها "المَفْتَح" بالفتح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة صلة ﴿مَا﴾، وهو ثاني مفعولَي "آتَى". و"ناءَ به الحِمل" إذا أثقله حتّى أماله، و"العُصْبة" و"العِصابة": الجماعة الكثيرة. وقُرئ: "لَيَنُوءُ" بـ"الياء"[1] على إعطاء المضاف حكمَ المضاف إليه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦/٧].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوب بـ﴿تَنُوٓأُ﴾. وقيل:[2] بـ﴿بَغَىٰ﴾، ورُدّ بأنّ البغي ليس مقيّدًا بذلك الوقت. وقيل:[3] بـ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ورُدّ بأنّ الإيتاء أيضًا غيرُ مُقيّد به. وقيل: بمُضمرٍ، فقيل:[4] هو "اذكر"، وقيل:[5] هو "أظْهَرَ الفرحَ". ويجوز أن يكون منصوبًا بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾،[6] ويكونَ الجملة مقرّرة لبَغيه.

﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تبطَر، والفرح في الدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنّه نتيجة حبّها والرضا بها، والذهولِ عن ذهابها، فإنّ العلم بأنّ ما فيها مِن اللذّة مفارَقة لا محالةَ يوجب الترَح حتمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد، ٢٣/٥٧]، وعُلّل النهي ههنا بكونه مانعًا مِن محبّته عزّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: بزخارف الدنيا.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَٱبْتَغِ﴾ وقُرئ: "وَاتَّبِعْ"[7] ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِن الغِنى ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن بديل بن ميسرة والضحّاك وابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦٩.

٢ وفي هامش م: ابن عطيّة. «منه». | المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٢٩٩/٤.

٣ وفي هامش م: أبو البقاء. «منه». | التبيان لأبي البقاء، ١٠٢٥/٢.

٤ وفي هامش م: الطبري. «منه». | لم أجده عند الطبري، وعزاه أبو حيّان إلى الحوفي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

٥ وفي هامش م: أبو حيّان. «منه». | البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٥/٨.

٦ القصص، ٧٨/٢٨.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المتوكل وابن السميفع. زاد المسير لابن الجوزي، ٣٩٣/٣.

ثوابَ الله تعالى فيها، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لا تترك تركَ المنسيّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ / وهو أن تحصِّل بها آخرتك، وتأخذ [٢٨٧ظ] منها ما يكفيك.

﴿وَأَحْسِن﴾ أي: إلى عباد الله تعالى ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم به عليك. وقيل: أحسِن بالشكر والطاعة كما أحسَن الله إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهيٌ عمّا كان عليه مِن الظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ مجيبًا لناصِحيه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى﴾ كأنّه يريد به الردّ على قولهم: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛[1] لإنبائه عن أنّه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر مِن غير سبب واستحقاق مِن قِبَله، أي: فُضِّلتُ به على الناس، واستوجبتُ به التفوّق عليهم بالمال والجاه.

و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موقع الحال، وهو عِلم التوراة، وكان أعلمَهم بها. وقيل: علم الكيمياء. وقيل: علم التجارة والدِّهقنة[2] وسائر المكاسب. وقيل: عِلم فتح الكنوز والدفائن. و﴿عِندِى﴾ صفة له، أو متعلّق بـ﴿أُوتِيتُه﴾، كقولك: جاز هذا عندي أو في ظنّي ورأيي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ توبيخ له مِن جهة الله عزّ وجلّ على اغتراره بقوّته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءةً في التوراة، وتلقّيًا مِن موسى عليه السلام، وسماعًا مِن حفّاظ التواريخ، وتعجيبٌ منه، فالمعنى: ألم يقرأ التوراة، ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه مِن أهل القرون السابقة حتّى لا يُغتَرّ بما اغترّ به؟ أو رَدٌّ لادّعائه العلمَ

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الدِّهْقان -بالكسر والضمّ-: التاجِر، والاسم "الدِّهْقَنة". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، ١١٩٨.

وتعظّمِه به بنفي هذا العلم منه، فالمعنى: أَعَلِم ما ادّعاه ولم يعلم هذا حتّى يَقِيَ به نفسَه مصارعَ الهالكين؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالَ استعلام؛ بل يعذَّبون بها بغتةً، كأنّ قارون لمّا هُدِّدَ بذكر إهلاك مَن قبله ممَّن كان أقوى منه وأغنى أُكِّد ذلك بأن بُيِّنَ أنّ ذلك لم يكن ممّا يخصّ أولئك المهلَكين؛ بل الله تعالى مطّلع على ذنوب كافّة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالةَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿قَالَ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. وقوله تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿خَرَجَ﴾، أو بمحذوفٍ هو حال مِن فاعله، / أي: فخرج عليهم كائنًا في زينته. قيل: خرَج على بغلة شهباءَ عليه الأُرجوان، وعليها سَرج مِن ذهب، ومعه أربعة آلاف على زِيّه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بِيض، عليهنّ الحُليّ والديباج. وقيل: في تسعين ألفًا عليهم المُعصفَرات، وهو أوّل يوم رُئِيَ فيه المُعصفَر. [٢٨٨و]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن المؤمنين جَريًا على سَنن الجِبِلّة البشريّة مِن الرغبة في السَّعة واليَسار: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ وعن قتادة: «أنّهم تمنَّوه ليتقرّبوا به إلى الله تعالى، وينفقوه في سُبل الخير».[2] وقيل: كان المتمنّون قومًا كفّارًا. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليل لتمنّيهم، وتأكيد له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي، وإنّما لم يوصَفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهًا على أنّ العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراضَ

---

١ في الآية السابقة.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٨.

عن الأولى والإقبالَ على الثانية حتمًا، وأنّ تمنّي المتمنّين ليس إلّا لعدم علمهم بهما كما ينبغي: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك، شاع استعماله في الزجر عمّا لا يُرتَضى.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تتمنَّونه ﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا يليق بكم أن تَتمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابه تعالى ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: هذه الكلمةَ التي تكلّم بها العلماء، أو الثوابَ، فإنّه بمعنى المَثوبة، أو الجنّةَ، أو الإيمانَ والعملَ الصالح، فإنّهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: على الطاعات وعن الشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوي أنّه كان يؤذي موسى عليه السلام كلَّ وقت وهو يُداريه لقَرابته حتّى نزلت الزكاة، فصالحه عن كلّ ألف على واحد، فحسَبَه فاستكثره، فعَمَد إلى أن يفضح موسى عليه السلام بين بني إسرائيل، فجعل لبَغِيّ مِن بغايا بني إسرائيل ألفَ دينار، وقيل: طَستًا مِن ذهب مملوءة ذهبًا، / فلمّا كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبًا، فقال: «مَن سرق [٢٨٨ظ] قطعناه، ومَن زنى غير محصَن جلدناه، ومَن زنى محصَنًا رجمناه»، فقال قارون: «ولو كنتَ؟» قال: «ولو كنتُ»، قال: «إنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجَرتَ بفلانة»، فأُحضِرت، فناشدها عليه السلام أن تصدُقَ، فقالت: «جعل لي قارون جُعلًا على أن أَرمِيَك بنفسي»، فخرَّ موسى ساجدًا لربّه يبكي ويقول: «يا ربّ إن كنتُ رسولَك فاغضَبْ لي»، فأوحي إليه أن مُرِ الأرضَ بما شئتَ، فقال: «يا بني إسرائيل إنّ الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمَن كان معه فليلزم مكانه، ومَن كان معي فليعتزله»، فاعتزلوا جميعًا غيرَ رجلَين، ثمّ قال: «يا أرض خُذِيهم»، فأخذَتْهم إلى الرُّكَب، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذتهم إلى الأوساط، ثمّ قال: «خُذيهم»، فأخذَتْهم إلى الأعناق، وهم يناشدونه عليه السلام بالله تعالى وبالرحِم، وهو لا يلتَفت إليهم لشدّة غَيظه، ثمّ قال: «خُذيهم»،

فانطبقَتْ عليهم، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجَون بينهم: «إنّما دعا عليه موسى عليه السلام ليَستبدّ بداره وكنوزه»، فدعا اللهَ تعالى حتّى خُسِف بداره وأمواله.[1]

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة مُشفِقة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بدفع العذابِ عنه، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: الممتنعين منه بوجه مِن الوجوه، يقال: نصرَه مِن عدوّه فانتصر، أي: منعه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَه ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يفعل كلَّ واحد مِن البَسط والقَدْر بمَحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البَسط، ولا لهَوان يقتضي القَبض.

و﴿وَيْكَأَنَّ﴾ عند البصريّين مركّب مِن "وَيْ" للتعجّب، و"كأنّ" للتشبيه، والمعنى: ما أشبه الأمرَ أنّ الله يبسط... إلخ. وعند الكوفيّين مِن "وَيْكَ" بمعنى "وَيلَك"، و"أنّ"، وتقديره: "وَيْكَ أعلمُ أنّ الله"، وإنّما يستعمل عند التنبّه على الخطأ والتندّم، والمعنى: أنّهم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيهم، وتندّموا على ذلك.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعدم إعطائه إيّانا ما تمنّيناه، وأعطانا مثلَ ما أعطاه إيّاه. وقُرئ: "لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا".[2] ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسَف به. وقُرئ: "لَخُسِفَ بِنَا"[3] / على البناء للمفعول، و"بِنَا" هو القائم مقام الفاعل. وقُرئ: "لَانْخُسِفَ بِنَا"،[4] كقولك: "انْقُطِعَ بِهِ". وقُرئ: "لَتُخُسِّفَ بِنَا".[5] ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله تعالى، أو المكذّبون برسله، وبما وُعِدوا مِن ثواب الآخرة. [٢٨٩و]

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣١/٢٨؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وطلحة والأعمش. المحتسب لابن جنّي، ١٥٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٠/٨.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنّه قيل: تلك التي سمعتَ خبرَها وبلغكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غلبةً وتسلّطًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ظلمًا وعدوانًا على العباد، كدأب فرعون وقارون. وفي تعليق الموعد بترك إرادتهما لا بترك أنفسهما مزيدُ تحذير منهما.

وعن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «إنّ الرجل لَيُعجبه أن يكون شِراك نعله أجودَ مِن شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها».[2]

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يتّقون ما لا يرضاه الله تعالى مِن الأفعال والأقوال.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ بمقابلتها ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتًا ووصفًا وقدرًا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وُضِع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيّئة إليهم، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا مِثل ما كانوا يعملون، فحُذف "المِثل"، وأقيمَ مُقامه ما كانوا يعملون مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

---

[1] س - تعالى.

[2] جامع البيان للطبري، ١٨/٣٤٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤١٠. قال الألوسي: ولعلّ هذا إذا أحبّ ذلك ليفتخرَ على صاحبه ويستهينَه، وإلّا فقد روى أبو داود [٦/١٩٠ (٤٠٩٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رجلًا أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم -وكان جميلًا- فقال: يا رسول الله، إنّي رجل حُبِّب إليّ الجَمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحِبّ أن يفوقني أحد -إمّا قال: بشِراك نَعل، وإمّا قال: بشِسْع نَعل- أفمِن الكِبْر ذلك؟ قال: «لا، ولكنّ الكِبْر مَن بطَرَ الحقّ، وغمط الناس». روح المعاني للألوسي، ١٠/٣٣١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيّ مَعادٍ، مَعادٍ يمتدّ إليه أعناق الهِمم، ويَزِنُو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه. وقيل: هو مكّة المعظّمة، على أنّه تعالى قد وعده وهو بمكّة في أذيّة وشدّة مِن أهلها أنّه يُهاجِر به منها، ثمّ يُعيده إليها بعزٍّ ظاهر، وسلطانٍ قاهر.

وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجُحفة في مهاجَره، وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرَم إبراهيم عليه السلام، فنزل جبريل عليه السلام، فقال له: «أتشتاق إلى مكّة؟» قال: «نعم»، فأوحاهاَ إليه.[1]

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقّه مِن الثواب والنصر. و﴿مَن﴾ منتصب بفعل يدلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: يعلم، وقيل: بـ﴿أَعْلَمُ﴾ على أنّه بمعنى "عالم".

﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقّه مِن العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسَه والمشركين. وهو تقرير للوعيد السابق، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: سيردّك إلى مَعادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجوه / ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه. ويجوز أن يكون [٢٨٩ظ] استثناء محمولًا على المعنى، كأنّه قيل: وما ألقي إليك الكتاب إلّا رحمةً، أي: لأجل الترحّم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمُداراتهم والتحمّل عنهم والإجابة إلى طُلبتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: الكافرون ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وفُرضت عليك. وقُرئ: "يُصِدُّنَّكَ"،[2] مِن "أَصَدَّ" المنقول مِن "صَدَّ" اللازم.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٦/٣.

٢ قراءة شاذّة، حكاها أبو زيد، عن رجل مِن كلب، قال: وهي لغة قومه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣١/٨.

﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبله للتهييج والإلهابِ وقطعِ أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم، وإظهارِ أنّ المنهيّ عنه في القُبح والشرّيّة بحيث يُنهَى عنه مَن لا يمكن صدوره عنه أصلًا.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلّا ذاته، فإنّ ما عداه كائنًا ما كان ممكن في حدّ ذاته، عرضةٌ للهلاك والعدم، ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء النافذ في الخلق، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحقّ والعدل.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿طسّمّ﴾ القصص كان له مِن الأجر بعدد مَن صَدّق بموسى وكذّب، ولم يبقَ ملَك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقًا».[1]

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٣٣/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٨٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.